صبري منصور وعالمه الساحر

أساطير اليوم والليلة

للأسف قليل من الفنانين التشكيلين من حظي بنعمة الثقافة وذاق لذة المعرفة ، والأقل من تشغله الأسئلة ويظل يلهث طوال حياته من أجل اصطياد الإجابات الصحيحة، والفنان الكبير صبري منصور من اولئك القلائل الذين أنهكهم البحث عن الخصائص الجمالية الت تميز الفن المصري، فقرأ وتعمق، وأبحر في فضاءات المعرفة الفسيحة، وقدم لنا نتيجة بحثه الدءوب متمثلاً في حصاد عامر من اللوحات المتفردة.

تخرج **صبري منصور** _55 عاماً_ في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة قسم التصوير عام 1964، وحصل علي درجة الدكتوراه عام 1976 وأصبح رئيساً لقسم التصوير بالكلية ثم عميداً لها في الفترة ن 1989_1992.

تستند لوحات **صبري منصور** علي خبرته الغزيرة بتفاصيل القرية المصرية، حيث عاش فيها طفولته المبكرة وصباه الأول، علاوة علي هضمه للتراث المصري بروافده الثلاثة الفرعوني والقبطي والإسلامي، فضلاً عن دراسته العميقة لمنجزات الفن الحديث في العالم كله.

لا يلتزم **صبري منصور** كثيراً بالحلول الأكاديمية المملة عند معالجة شخوصه وعناصره، فالنساء مثلاً تخففن من سطوة التشريح المنضبط للجسد، فلا ملامح واضحة، مع نزعة لتضخيم الأيدي، مما يفاقم من انهمار الدراما علي سطح اللوحة، خاصة وان هناك امرأتين خرجتا من الكادر العام، واستقرت كل واحدة بجوار نخلتها.

الهوس بالدراما

لا تخلو لوحة الفنان **صبري منصور** من انتشار نغمة الدراما في أرجائها، لكنها دراما لا تقع في مستنقع الابتذال المذموم، خاصة وأن الإنسان _ رجلاً أو أمراة_ يحتل دوماً مكاناً معتبراً في أي عمل من أعماله، وبالطبع يكون المصدر الرئيسي لتفجير الدراما، لذا لا عجب أن ينفر **صبري منصور** من الاتجاه التجريدي الذي يتعارض وفق رأيه، مع الملامح العامة للفن المصري، وهو يقول في ذلك، اعتقد أن الروح المصرية بما تحمل من مضمون قوي بالوجود، وإحساس عارم بالحياة ضد التجريد.

في لوحة "أساطير حول الهرم" نشاهد ملحمة درامية تضج بالأحداث، رغم الثوب السكوني الذي يغلفها، فها هو الهرم بتكوينه البديع وشكله الجميل الراسخ يحتل المنطقة الذهبية في اللوحة، بينما اصطف أسفله عدد من الرجال والنساء وقد انخرط كل منهم في حالة ما، فهذا يرفع يديه بالدعاء، وذاك ينتحب في حين هام في فضاء اللوحة حول الهرم أمراتان أتخذتا أوضاعاً مسرحية، كذلك وقفت اثنتان من النساء في حالة جزع عن يمين وشمال الهرم الذي أحدث به الفنان تجويفاً ملأه رجل ذو نكهة "مومياوية".

وكعادته _في هذا العمل_ ينفر الفنان من رتابة محاكاة الواقع، فالنساء تحررن من قيد تناسق الجسد، وقبعن في أجسام قصيرة مكتنزة أطاحت بالكنوز الشهية التي يشعلها عادة جسم المرأة السوي، كذلك لم يسلم الرجال ن كيمياء التشويه لأجسامهم.

إن هذا التدمير للشكل السائد للشخوص هو الذي يفجر طاقات الجمال الخبيئة في اللوحة، ويهبها هذه الرائحة الكهنوتية التي تفوح في فضائها.

ورغم أن القاموس اللوني **لصبري منصور** يتسم بتقشف واضح، إلا أنه تمكن بمهارة يحسد عليها ان يشيد لوحة عامرة بالدراما والخيال بعناصر لونية قليلة.

ومثلما فعل الفنان الشرقي في الأزمنة القديمة نجد صبري منصور يستلهم نفس المنطق وهو انصرافه عن صنع منظور (بعد ثالث) حيث تظهر الأشكال والعناصر دائماً في المستوي الأول، حتي تبين علي حقيقتها ذلك أن المنظور خداً ع لكونه يقلل أحجام العناصر البعيدة في المشهد، لكنه احتفي بالفورم "التجسيم" في حدود معقولة حتي تتأكد مناطق الظل والنور.

سريالية.. مصرية

لا شك في أن المدرسة السيريالية لتي ظهرت في عشرينيات هذا القرن في أوربا قد ساهمت فى توسيع رقعة الإبداع التشكيلي من خلال اقتحامها للنفس البشرية وما يمور فيها من أحلام وخيالات وكوابيس والتعبير عن ذلك بالخط واللون والحجر والمعدن.

وفي مصر يعد الراحل الفذ عبد الهادي الجزار (1926- 1966) أحد أهم الرموز الذين استثمروا علاقتهم بالمدرسة السيريالية وقاموا بتمصيرها _إذا جاز القول_ في لوحات بديعة تدعم الهوية المصرية، وبالمناسبة فقد حظي صبري منصور بنعمة التتلمذ علي يد الجزار في الكلية.

وعندما سألت **صبري منصور** عن المشترك بينه وبين السيريالية أخبرني: "إنها تمنحني عالماً أخر وأحاسيس أخري، علي أساس عدم اعتبار الواقع هو الحياة فقط".

في لوحة "طقوس"–تسمية اللوحات كلها من عندنا _ننبهر بهذا التكوين المدهش، حيث قسم الفنان لوحته إلي مستويين، الأول يحتل ربع اللوحة العلوي تقريباً، ويشمل مجموعة من النساء يشكلن مشهداً مسرحياً أشبه بأجواء الأساطير، وخاصة أن تكوين المرأة أتسم بطابع فطري بدائي نتيجة اختلال التشريح، بالإضافة إلي حركة الأيادي والرءوس التي تفجر الهلع في نفس المشاهد، خاصة وأن هناك طائراً يفرد أجنحته

في الفضاء بصورة كئيبة، فضلاً عن الكائن العجيب الذي يحمل جسد إنسان ووجه طائر جارح ناحية اليسار.

أما المستوي الثاني فيتضمن بقية اللوحة، وقد قسمه الفنان إلي مائة مستطيل متساو، ورسم في كل مستطيل رسماً ما، بحيث يعطي الشكل العام في النهاية إيحاء بانها جدارية فرعونية قديمة ذات كتابة هيروغليفية!!

لا يترك صبري منصور خطوطه ورسومه للمشاعر العفوية غير المدروسة، فالفكرة ناصعة رغم غموضها المثير، والتصميم بالغ المتانة والصرامة، بحيث لا يمكن أن تحرك أي عنصر قليلاً سواء كان فرع نبات، أو الرجل أو... أو.. إلخ، إلا أختل التكوين وارتبك الاتزان.

ورغم أن هذه اللوحة قد فازت ببعض الألوان التي لا يقترب منها الفنان كثيراً مثل الأحمر _التفاح والورد_ والبني الخاص بلون اللحم البشري إلا أن لونه المفضل _الأزرق_ المخلوط بقليل من الأخضر، قد ساد المشهد بشكل عام، دون أن يقلل كفاءة الإيقاع العام.

أنحاز صبري منصور إلي الملمس الناعم ع معالجته للسطح، وقد برر ذلك بقوله : "أشعر أن السطح الخشن يقلل من استقرار اللوحة، وأعتقد ان أهم سمات الفن المصري النعومة والأداء المستقر، وعدم الانفعالية الشديدة".

صبري منصور فنان مثقف، صاحب خيال منهمر، وموهبة متفجرة، يمتلك صبر بحار قديم ودأب وإصرار فناني عصر النهضة العظام، استلهم من الموروث المصري الحس البنائي، وصرامة التكوين وأناقته، وصالح منجزات المدارس الغربية، وانتخب منها ما يعزز موضوعاته.. لوحاته عامرة بنبرة درامية مثيرة وغامضة ، فضلا عن براعته المذهلة في إدارة الصراع اللذيذ بين الظل والنور...

باختصار صبري منصور يسعى لتخليق قيم جمالية مصرية تصد المحاولات الدءوبة لطمس الهوية.. حقاً ما أصعب المهمة وما أنبل الهدف!!

ناصر عراق

مجلة سطور – القاهرة – 1999